

الفصل الخامس

السيادة الإسلامية في أسبانيا

أهمية شمال أفريقيا للدولة الإسلامية - البربر - عمليات الفتح وقادته وبطولة المسلمين - شمال أفريقيا نقطة وثوب على أوروبا - الأسباب المباشرة لفتح أسبانيا - موسى بن نصير يستأذن الخليفة الوليد بن عبد الملك - سرية طريف ونجاحها عام ٩١ هـ / ٧١٠ م - حملة طارق ووقعة وادي لكة - موسى يلحق بطارق - أبناء غيطشه وضياعهم - « أرض تدمير » وكتاب الصلح . اتهام الفتح - الولايات المسيحية الباقية في أسبانيا الإسلامية .

تطلبت الأحوال العسكرية حماية الجناح الأيسر للفتوح الإسلامية إذ لم تزل السيادة البيزنطية مبسوطة على شمال أفريقيا . فكان من الضروري فتح شمال أفريقيا وإزالة السيادة البيزنطية بعد أن أزالها المسلمون عن الشام ومصر .

واستغرق فتح أفريقية الشمالية ، ما يربو على نصف قرن من الزمان (٢٥ - ٥٨٩ / ٦٤٦ - ٧٠٨ م) ، وهذه فترة طويلة بالقياس إلى سرعة الفتوح الإسلامية السابقة ، حيث استغرق فتح الشام ومصر وفارس نحو عشرين عاما فقط ، غير أن هذا البطء راجع إلى طبيعة البلاد الجغرافية ، يضاف إلى ذلك شدة مقاومة البربر وصلابتهم ، ومن ناحية أخرى هناك حصون الروم المنيعة التي لم تزل قائمة على طول الساحل ، وتتولى أمر حراستها قوة بحرية هائلة ، وهذا ما ضاعف من مشقات الفتح ، وعرقل من سرعة التقدم (١) .

ويتميز البربر ، سكان شمال أفريقيا ، بالشجاعة وحب الحرب وقوة الشكيمة ، ولذا كان من العسير إخضاعهم أو التغلب عليهم ، عاشوا على النظام القبلي ، وانتشروا في مساحات واسعة مترامية الأطراف ، ومن ثم تحتم على فاتح بلادهم ، أن يحارب في كل مكان (٢) .

(١) العبادي : موجز تاريخ الأندلس ص ٣٠

(٢) العبادي ص ٣٢ ؛ H. G. T. I. P. 473

والبربر قسمان . البرانس والبتر ، ومرجع هذه التسمية ، هو الزى القومى المنتشر فى شمال أفريقيا ، فالبرانس وهم سكان الحضر ، يلبسون البرانس ذا الغطاء ، للرأس ، بينما لبس البتر هذا الزى وهو أتر من ذلك الغطاء وهؤلاء يقيمون فى البادية ، ومن فروع البرانس صنهاجة وكتامة وأوربة ومصمودة وأوريغنه وغيرها ، ومن البتر إداسة ، ومنها تفرعت هواره ولواتة وزناتة وغيرها (١)

اشترك فى عمليات الفتح سبعة من كماء الحرب ونوابغ السياسة ، أولهم عمرو بن العاص وآخرهم موسى بن نصير ومولاه طارق بن زياد . فوصلت جيوش عمرو بن العاص إلى بلاد أطرابلس (طرابلس) فى عام ٢٢ هـ / ٦٤٣ م ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمرو بن الخطاب ، يخبره وبما أفاد به عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد أفريقية ، (٢) جاء بعده عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وغزا أفريقية (تونس) عام ٢٦ هـ / ٦٤٧ م ، وهزم جرجورى Gargory الأرخون البيزنطى فى أفريقية ، وعاد بالغنائم (٣)

(١) انظر : ابن خلدون : تاريخه ج ٦ ص ٨٩ - ٩٦ ، الناصرى : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٥٣ - ٥٨ ، البلاذرى : فتوح البلدان ج ١ ص ٢٦٥ - ٢٧٠ ، العبادى : موجز تاريخ الأندلس ص ٣٢ - ٣٣ ، مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٥ - ٦ ، لوبون : حضارة العرب . ترجمة زعيتر . ص ٢٤٤ - ٢٥٣ ، طرخان : شمال أفريقيا والوندال (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية - العدد التذكارى ١٩٦٢) ، Gsell, S. Histoire Ancienne de l'Afrique Du Nord, T. I, P. 1, Soames, J. The Coast of the Barbary, P. 12 sqq. ; Ch - André, J. La Berbérie, p. 49 ; C. Med. H. (Sh.) , Vol. I, P. 36 .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ج ١ ص ٢

Deanesly, pp. 200 - 201

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٣ - ٥ ، البلاذرى ج ١ ص ٢٦٤ - ٢٦٩

توقفت الفتوح الإسلامية فترة ، بسبب انقسام المسلمين خلال الفتنة الكبرى التي وقعت في الدولة الإسلامية ، وانتهت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان (٢٣ - ٣٥ هـ / ٦٤٤ - ٦٥٦ م) وقيام النزاع بين علي ومعاوية . (١) ثم استؤنفت بعد أن استقرت الأحوال بقيام الدولة الأموية عام ٤١ هـ / ٦٦١ م وهو المعروف بعام الجماعة ، لإجماع المسلمين على خليفة واحد ، وهو معاوية ابن أبي سفيان (٤٠ - ٦٠ هـ / ٦٦٠ - ٦٨٠ م) (٢) .

وفي العهد الأموي بدأ الفتح الحقيقي لبلاد المغرب ، فقد عقد معاوية لعقبة بن نافع الفهري ولاية أفريقية عام ٥٠ هـ / ٦٧٠ م . وابتنى عقبة مدينة القيروان عام ٥١ هـ / ٦٧١ م وجعلها مركزا وقاعدة لعملياته الحربية وإمداداته . (٣) اكتسح عقبة شمال أفريقيا ووصل إلى شاطئ الأطلس ، ولشدة بأسه ظفر بلقب « قاهر الروم والبربر » (٤) . ولما خلفه أبو المهاجر دينار على ولاية أفريقية ، اعتمد الوالي الجديد على السياسة واللين والموادعة ، فهادن البربر حتى لا يتعرض لخطر عدوين في وقت معا . ولذلك انضمت إليه جموع البربر البرانس وزعيمهم يومثد كسيله الأوروبي . اعتنق كسيله وقبيلته الإسلام وزحفوا مع أبي المهاجر وفتحوا تلمسان (٥) .

(١) انظر الطبري ج ٥ ص ٩٨ - ١٤٥

(٢) الطبري ج ٥ ص ١٥٢ ومايليها . ج ٦ ص ٢٧ - ٥٢ ، ٨٣ - ٨٧ ، ٩١ - ٩٧

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ١٤ - ١٥ ، اليعقوبي : كتاب البلدان ص ١٠٥ - ١١١ ،

مؤنس : فجر الأندلس ص ٣٩ - ٤٠ ، ج ١ . Deanesly, p.

(٤) العبادي ص ٣٣ ومايليها . ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٦٢ . ابن الأثير ج ٣

ص ١٩٩ - ٢٠٠ . ابن عذاري ج ١ ص ١٦ ، راجع الفصل الثالث .

(٥) ابن عبد الحكم ص ٢٦٥ ؛ Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne,

pp. 153-4

غير أن عقبة عاد لولاية المغرب مرة أخرى في عام ٦٢ هـ / ٦٨٢ م .
جاء وهو يشتعل حماسة للفتح والبلاء . ولكنه أخطأ التقدير . يوم انحرف
عن سياسة سلفه . وأخذ البربر بالقهر وعاملهم بالقوة ، اعتقاداً منه ،
أنهم لا يخضعون إلا للقوة . فقبض على كسيله كما قبض على أبي المهاجر
وأوثقه بالحديد ، ووصل في زحفه إلى ساحل المحيط الأطلسي (١) ، ثم عاد
مغترباً بنصره ، فلم يأخذ الحيلة ، ومن ثم أحرق به الروم والبربر وقتلوه ،
كما استشهد أبو المهاجر في المعركة ، وكان للبحرية البيزنطية أثرها الحاسم في
هذا النصر (٢)

سأل المسلمون الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٨٦ هـ / ٦٨٥ -
٧٠٥ م) أن يعمل على تخليص أفريقية ومن بها من المسلمين ، من يد كسيله ،
الذي كان قد دخل القيروان ٦٤ هـ ، فأجاب الخليفة : لا يصلح لطلب دم
عقبة من الروم والبربر إلا من هو مثله ديناً وعقلاً (٣) ، واستقر الرأي
على تولية زهير بن قيس البلوي ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، ونجح زهير في القضاء
على كسيله وقتله في وقعة ممس أو ممس ، وفي عودة زهير قضى عليه الروم
بسبب تفوقهم البحري (٤) .

(١) راجع الفصل الثالث

(٢) ابن عبد الحكم ص ٢٧٢ ؛ ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧ ، عمر فروخ : العرب
والإسلام في الحوض الغربي من البحر المتوسط ص ٦٥

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ١٧ - ١٩

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ١٩ - ٢١ ، ابن عبد الحكم ص ٢٧٢ . ابن الأثير

ج ٤ ص ٤٧

خلفه حسان بن النعمان الغساني (٧٨ - ٥٨٦ / ٦٩٧ - ٧٠٥ م) وقال له الخليفة عبد الملك بن مروان : إني قد أطلقت يدك في أموال مصر فأعط من معك ومن ورد عليك ، وأعط الناس ، وأخرج إلى بلاد أفريقية وعلى بركة الله وعونه (١) . سار حسان على سياسة أبي المهاجر دينار في اصطناع البربر ، لمحاربة الروم ، وهم العدو المشترك ، ودمر قرطاجنة (٢) حتى يحرم أسطول الروم من هذه القاعدة ، فهرب من كان بها من الروم إلى صقلية والأندلس (٣) ، غير أن خطراً واجه حسان من عدو صعب المراس ، هو الكاهنة ، زعيمة البربر البتر ، وهي امرأة يهودية لها قوة روحية ونفوذ كبير على البربر ، تخبرهم بأشياء من الغيب ، فسميت الكاهنة ، ومعتقلها جبل أوراس وتتحكم في كل شمالي أفريقية ، ويقال إن حساناً سأل أهل القيروان عن بقي من أعظم ملوك أفريقية ، وذلك بعد قضائه على قرطاجنة . ليسير إليه فيبيده أو يسلم . فدلوه على الكاهنة بجبل أوراس وقالوا له : وجميع من بأفريقية من الروم منها خائفون . وجميع البربر لها مطيعون ، فإن قتلتها ، دان المغرب كله ولم يبق لك مضاه ولا معاند ، (٤)

التقى بها حسان في « وادي سكتانه » الذي عرف بوادي العذارى ،

(١) البيان المغرب ج ١ ص ٢٢

(٢) بسمها أهل تونس (المعلقة) انظر المرجع السابق ص ٢٣

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٢٤

(٤) البيان المغرب ج ١ ص ٢٥

فهزمته ، (١) بعد أن هدمت مدينة « باغية » وأخرجت منها الروم حتى لا يتحصن بها حسان ، فارتد حسان إلى برقة وانتظر فيها بأمر الخليفة ، وأقام حسان ببرقة خمس سنوات ، حيث أقام قصوراً ، ولا يزال مكان إقامته يعرف إلى الآن بقصور حسان (٢) .

وخلال هذه الفترة تحكمت الكاهنة في جميع بلاد المغرب ، فلما رأت إبطاء العرب عنها قالت للبربر : إن العرب إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة . ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي ! فلا نرى لكم إلا خراب بلاد أفريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ، فلا يكون لهم رجوع إليها إلى آخر الدهر ! (٣) .

وكانت هذه سقطة وقعت فيها الكاهنة ، فإنها بعد أن وجهت قومها للتدمير والتخريب ، أثارت البربر البرانس والروم ، فاستغلوا بحسان . اتهم حسان الفرصة ، واشترط على البربر الذين انضموا إليه . أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر ألف مقاتل يجاهدون مع العرب (٤) ، فأجابوه

(١) كانت الكاهنة قد أسرت ثمانين رجلاً من أعيان أصحاب حسان ، وأحسنّت معاملتهم وأعادتهم إليه باستثناء خالد بن يزيد ؛ فقد استدنته منها وقالت له : مارأيت في الرجال أجمل منك ولا أشجع ، وأنا أريد أَرْضُعَكَ ، فتكون أخاً لولدى . وكان لها ابنان أحدهما بربري والآخر يوناني ... ثم قالت له « نحن جماعة البربر لنا رِضَاع ، إذا فعلناه نتوارث به » . فعمدت إلى دقيق الشعير ؛ فلتته بزيت وجعلته على ثدييها ، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثديي ! فعلاً ، فقالت : قد صرتم إخوة . (البيان ج ١ ص ٢٧)

(٢) البيان المغرب ج ١ ص ٢٥ - ٢٦ ؛ ابن عبد الحكم ص ٢٦٩ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٥٤ ؛ البلاذري ج ١ ص ٢٧٠ ، العرب والإسلام ص ٦٩ .

(٣) البيان المغرب ج ١ ص ٢٦ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٩ ، العبادي ص ٣٦ - ٣٧ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٤٧ -

وأسلموا على يديه ، وانتصر حسان على الكاهنة وقتلها ، وأخرج البربر مع العرب لقتال الروم « ومن كفر من البربر ، (١) ، ثم انصرف حسان إلى القيروان ، بعد أن حسن إسلام البربر واستقامت له طاعتهم ، كان ذلك في شهر رمضان سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م ، ولذلك يعتبر حسان القاطع الحقيقي للمغرب ، فقد نظم الفتوح وصالح على الخراج ودون الدواوين . (٢) .

ولما ولي موسى بن نصير أفريقية عام ٨٩ هـ / ٧٠٨ م سار على النظم التي وضعها حسان ، وافتنى أثره وسياسته في اصطناع البربر ، وسوى بينهم وبين العرب في المعاملة . واستأنف موسى عمليات الفتح ونجح في إتمام فتح شمالي أفريقية حتى وصل إلى طنجة (٣) واستعمل عليها مولاه طارق ابن زياد .

وكانت سبته (Ceubta) قد صمدت أمامه بسبب قلاعها الحصينة ، غير أن تطور الأحداث قد أدى إلى إرتمائها في أحضان العرب وإلى تسهيل مهمة عبورهم إلى أسبانيا ، هذه المدينة تتبع بزنطة اسبانيا ، لكنها اعتمدت على ملكة القوط الغربيين عبر الزقاق (٤) ،

وهكذا تم فتح شمالي أفريقية ، وهذا هو الفتح الكامل الحقيقي ، وهو

(١) البيان المغرب ص ٢٩

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣٠ - ٣١ ، ٢٣ - ٢٤

(٣) فتح الطيب ج ١ ص ١٠٧

(٤) ابن عذاري ج ٢ ص ٩ ، العبادي ص ٤٣ ، دولة القوط الغربيين للمؤلف

ص ١٢١ Dozy, Op. Cit., T. II, PP. 33 - 35 ; Scott, Op. Cit., p. 221

ليس من قبل الاحتلال أو الاستعمار ، لأن هذه النعوت ليست لها صفة الدوام أو الاستمرار أو التركيز ، هذا هو الفتح الحربي والمعنوي إلى أبعد الحدود ، فإن لغة الفاتح ودينه وعادته وثقافته ، حلت محل اللغة والدين والعادات التي كانت عليها البلاد المفتوحة ، بمعنى آخر ، هذا هو التعريب الصحيح ، فقد أضحي البربر عدة العرب في الفتوح ونشر الإسلام ، بل إن الجيش الذي عبر به طارق إلى الأندلس ، كان خليطاً من العرب والبربر ، وربما كان البربر الغنصر الغالب فيه (١).

غير أن ساحل أفريقية الشمالى ، كان منذ أقدم العصور . نقطة وثوب على أوروبا ، كما هو في نفس الوقت مطمع للوثوب عليه من الجانب الآخر من البحر (٢) ، فقد غزته روما قديماً منذ عصور ما قبل الميلاد . وفي القرن الخامس الميلادى أعد الأاريك القوطى الجرمانى ، ومخرب روما ، مشروع الغزو الأفريقى للحصول على غلات أفريقية . لولا موته الفجائى (٣) ، وهكذا فعل الوندال يوم عبروا الزقاق عام ٢٤٩ م . وأسسوا لهم مملكة فى شمالى أفريقية . عمرت نحو قرن من الزمان (٤) . ومن بعدهم القوط الغربيون وهم فى مملكتهم بأسبانيا .

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢١ ؛ العبادى ص ٣٧ - ٣٨ . ابن عبد الحكم ص ٢٤٧ .

Risler, J.C., La Civilization Arab, pp. 36-46 ; H. G. T. I. p. 444

Bury, J., Op. Cit., p. 89 (٢)

Moss, Op. Cit., p. 46 ; Lot., Op. Cit. p. 77 ; Hodgkin, T., : (٣) انظر

Italy & Her Invaders, Vol. I. pp. 806-809 , Bradley, pp. 97-81

Oman, Op. Cit., p. 283 (٤) انظر : شمالى أفريقية والوندال المؤلف ؛

Leclercq, Op. Cit, P. 363 ; Watils, Op. Cit. P. 17

ووثب هانديبال العتيق من شمال أفريقية ودمر أسبانيا الرومانية ، كما ضرب إيطاليا . وهام أولاء العرب المسلمون يتهبثون لغزو أوروبا الجنوبية من هذا الساحل ، وذلك في نهاية القرن الأول البحري ومطلع القرن الثامن الميلادي .

والمواتر في الكتب العربية والأجنبية . أن كروت يوليان (Julian) حاكم سبته . قد استعدى العرب على القوط بسبب اعتداء لوزريق ، ملك القوط المختصب ، على عفاف ابنته (١) ، وأنه هو الذي زين للعرب فتح أسبانيا (٢) . ويقال إن أبناء الملك المخنوع وتيزا Wetiza ، وهو المعروف في الكتب العربية باسم غيطشة (٣) قد اتصلوا بيوليان . واتفقوا معه على أن يتصل بالعرب ، للاستعانة بهم ضد المختصب لوزريق (٤) .

والراجح أن العليج « يوليان » (٥) أدرك أن العرب قد صاروا قوة لا يمكن الوقوف أمامها ، ورأى من الحكمة وبعد النظر أن يصطنع هذه

(١) هناك بعض الشك في قصة اعتداء لوزريق على ابنة يوليان ، ويقول قلة من المؤرخين إنها أسطورة .

(٢) فتح الطيب ج ١ ص ١١٦

(٣) ذكره ابن القوطية باسم غيطشة ، وسماه القلقشندی غطسة ، وفي غيرها غيطشة (ابن القوطية ص ٢٨-٢٩ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٤١ ، ابن خلدون ج ١ ص ٣٦٥ ، ابن الأثير ج ٤ ص ١٢١-١٢٣)

(٤) فتح الطيب ج ١ ص ٢٣١-٢٣٢ ، ٢٤٩ ، أخبار مجموعة ص ٥ ، ابن عذاري

ج ٢ ص ٩ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٥٧ - ٦٦

Soefft, l. pp. 217 - 219 ; De Marlès p. 62

(٥) ابن عذاري ج ٢ ص ٦

القوة الجديدة الفتية ليحتفظ بولايته في سبته . ومن ناحية أخرى ليدرك ثأره من حادث الاعتماد على ابنته (١) ، يضاف إلى ذلك ، صلته الوثيقة بالأسرة المالكة القديمة التي أزالها لودزيق . كذلك اتصل بالعرب انتقاماً لعرضه ونصرة للأسرة المخلوعة .

والذى لاشك فيه أن العرب جاءوا إلى أسبانيا بنية الفتح لآبنية إمداد غيرهم . فلم يكن الغزو المأجور من شأن العرب . ولم تجر بذلك عادة في فتوحهم السابقة . ووقائع الفتح تثبت هذا بما لا يقبل التأويل ، ولعل أصدق دليل على ذلك تلك الحملة البحرية التي أرسلها أبو المهاجر دينار والى أفريقيا في عام ٥٦ هـ / ٦٧٥ م . لغزو شواطئ أسبانية . حيث تصدى لها أسطول القوط (٢) وتلك الحملة البحرية التي أرسلها موسى بن نصير لغزو جزيرة ميورقة عام ٨٩ هـ - ٧٠٨ م بقيادة ابنه عبدالله (٣) .

وأيا كانت الأسباب . فالثابت أن يوليان اتصل بطارق بن زياد والى مرطانية من قبل موسى بن نصير . فأوصله طارق بدوره عام ٩١ هـ / ٧١٠ م إلى موسى . فاستشار موسى الخليفة الوليد بن عبد الملك (٤) . فأشار الوليد بأن يكون حذرا في مشروعه . وما جاء في كتاب الخليفة « خضها بالسرايا

(١) ابن عذارى ج ٢ ص ٦ ؛ العبادى ص ٤٨ ؛ العرب والإسلام ص ٧٦ — ٨٠

(٢) العبادى ص ٥٢ ؛ De Drenne, H., Mohammed Charlemagne P. 155, De Marlès PP. 64 - 66, Deanesly, P. 106, Dichb, P. 589, Leclercq. P. 882

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢١ ، انظر مايلي

(٤) اختلفت الأقوال في طريقة استشارة موسى للخليفة ، فهناك من يقول إنه كتب إليه يستشير « وهناك من يذكر أنه شخص بنفسه (ابن عذارى ج ٢ ص ٦)

ولا تفرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال ، راجعه موسى : « ليس يبحر زخار . وإنما هو خليج يتبين للناظر ما خلفه » (١)

وبموافقة الوليد . أرسل موسى سرية بقيادة رجل من مواليه البربر . هو طريف بن مالك . ويكنى أبا زرعة . وتتكون السرية من مائة فارس وأربعمائة راجل ، وقدم يوليان السفن اللازمة لنقل هذه القوة عبر الزقاق . نزلت القوة الإسلامية في رمضان عام ٩١ هـ / ٧١٠ م على الشاطئ الأسباني ، في المكان المعروف اليوم ، باسم رأس طريف Tarifa ، أو جزيرة طريف ، نسبة إليه (٢) . وعادت الحملة غائمة ، يقول الحميري : « فأصاب سيياً لم ير موسى ولا أصحابه مثله حسناً ، ومالا جسيماً وأمتعة » (٣) .

اطمأن موسى بن نصير إلى جانب يوليان (٤) ، واستوثق من حال أسبانيا القوطية ، وأرسل جيشاً كبيراً مؤلفاً من اثني عشر ألف مقاتل ، أكثرهم من البربر (٥) ، واختار لقيادة هذا الجيش مولاة طارق بن زياد ،

(١) الروض المعمار ص ١٢٧ . ابن عذاري ج ٢ ص ٦ . نفح الطيب ج ١ ص ١١٨

(٢) الروض المعمار ص ١٢٧ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٦ . تقويم البلدان ص ١٦٥

(٣) الروض المعمار ص ١٢٧ . العبادي ص ٤٩ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٠٦

De Marles, PP. 66 - 68 Levi - Provencal, pp. 8-9 ; Scott, p. 224

(٤) ذكر المفري أن يوليان « عاود القدوم على موسى بن نصير محرراً في الاقتحام على أهل الأندلس » ، وشجعه بالنصر الذي ظفر به طريف . (نفح الطيب ج ١ ص ١١٩) .

(٥) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٧

وكان موسى قد بلى قدرته وكفائته في الحروب السابقة^(١). نزل طارق بجيشه ، فيما يسمى الآن « جبل طارق » ، نسبة إليه ، ويسميه العامة : « جبل الفتح »^(٢) .

وكان لودزيق في ذلك الوقت يحارب البشكنس Basques والفرنجة Franks في الشمال ، فلما علم بتزول العرب ، أسرع نحو الجنوب .

وفي يوم الأحد ، ثلثتين بقيتا من شهر رمضان عام ٥٩٢ / ١٩ يوليو عام ٧١١ م ، التقى طارق بجيش القوط الغربيين الذي كان يفوق الجيش الإسلامي من حيث العدد^(٣) ، التقى الجيشان في وادي نهر لكة Lakko أو فخص شريش Xeres أو Jerez De la Frontera^(٤) ، كانت روح الجيش القوطي المعنوية منحنة ، بسبب كثرة ما فيه من العبيد والأرقاء ، كما كان به نفر من الأسيرة المالكة القديمة وأنصارها ، ويقال إن لودزيق ، اتصل بأبناء غيطشه ، ودعاهم لمناصرته ضد العرب ، في هذا الوقت العصيب ، فقدم هؤلاء ، ولكنهم أضرموا الغدر به ، واتصلوا بطارق ، قبيل الواقعة ، وأعلموه « أن لودزيقا إنما كان كلباً من كلاب أبيهم وأتباعه ، وطلبوا منه ، أن « يعضى لهم ضياع أبيهم بالأندلس ، وكانت ثلاث آلاف ضيعة ، سميت

(١) العبادي ص ٤٩ ، De Marles, pp. 67 - 68

(٢) ابن عذاري ج ٢ ص ١٣ ، نفح الطيب ج ١ ص ١٠٧ ، الروض المعمار ص ١٢١

(٣) بلغ جيش القوط نحو أربعين ألف مقاتل (نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨)

(٤) الروض المعمار ص ١٠٢ ، ١٦٩ - ١٧٠ ، تفويم البلدان ص ١٦٥ ، أخبار مجموعة ص ٨ ، مؤنس : فجر الأندلس ص ٧٣ ،

Levi - Provençal. p.8; Pirenno, Moh. & Charl., p. 155

بعد ذلك صفايا الملوك ، فلما أصبحوا ، انحازوا بمن معهم إلى طارق ، فكانوا سبب الفتح ، (١).

ثم إن وجود عدد كبير من كبار أنصار غيطشة ، فضلا عن بعض أقربائه بجيش لوزريق ، كان من بين أسباب هزيمة القوط ، فقد كان هناك الأسقف أوباس Uppas أحد إخوة غيطشة ، وسيسبرت Sisebert أسقف طليطلة المعزول ، وهو من أقرباء الملك المخلوع . ترك هذا الفريق مواقعه في أثناء القتال ، فدارت الدائرة على القوط (٢) .

استولى المسلمون على أشبيلية Seville وقرطبة Cordova و طليطلة Toletum العاصمة ، غير أن النصر النهائي لم يكن قد تم بعد ، إذ جمع لوزريق فلول جيشه وعاد يهدد طليطلة التي اتخذها العرب عاصمة لهم ، وحينئذ طلب طارق نجدة من موسى ، فأنجده بجيش . استولى به على عدة مدن مثل مارده Marida وغيرها عام ٧١٣م (٣) .

لحق موسى بطارق ، واشترك معه في فتح بقية أسبانيا ، وليس حقا ما قيل إنه حقق على طارق وأراد أن يقاسمه شرف النصر والفتح . يقول المقرئ « وكتب طارق إلى موسى بن نصير بالفتح وبالغنائم . فركبته

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٩

(٢) ابن القوطية ص ٣٢ - ٣٤ ، العرب والإسلام ص ٨١ وما بعدها ،

Watts, P. 16 ; Dozy, II, pp. 33 - 35 ; Leclercq, p. 369

(٣) نفع الطيب ج ١ ص ١٠٨ ، الروض المطار ص ١٨ - ٢٢ ، ١٥٣ - ١٥٨ ؛

١٧٥ - ١٧٧ . ابن القوطية ص ٣٣ - ٣٥

الغيرة . وكتب إلى طارق يتوعده إن توغل بغير إذنه . ويأمره ألا يتجاوز مكانه ، (١) . والواقع أن أبا عبد الرحمن موسى بن نصير شعر بالمسئولية والتبعية . وخشى من اندفاع الجيش الإسلامي ، معتزاً بنصره ، حتى لا تنقطع عليه خطوط الرجعة (٢) . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى من أن موسى إنما فعل ذلك به — أي أمر طارقاً بالتريث حتى يقدم — لتقدمه دون رأيه ، وهو مولاه ، وعلى توغله بالمسلمين وتغريه بهم (٣) .

حدث بعد ذلك ، أن ثارت المدن الكبرى ضد السيادة العربية الإسلامية الجديدة . مثل أشيلية وطليلة وغيرها ، فاضطر العرب إلى فتحها من جديد (٤) .

أما أبناء الأسرة المالكة القديمة . وأسرة يوليان . فقد استسلم العرب وأرضوهم بالأموال والقصور والإقطاعات ، فقد اتصل أبناء غيطشة بطارق بعد الفتح ، فأوصلهم إلى موسى بن نصير ، وهذا أوصلهم بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق ، حيث تلقاهم بالترحاب والإكرام ، وأنفذ لهم عهد طارق في ضياع والدم ؛ وعقد لكل واحد منهم سجلاً بضياعه . وما ورد في هذه السجلات :

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٠٨ ، ١٢٦ ، ابن عذارى ج ٢ ص ٢٣ - ٢٤ ، ابن القوطية ص ٣٥

(٢) العبادى ص ٥٠ - ٥١ ؛ أخبار مجموعة ص ١٥ - ١٨

De Marlès pp. 97 - 100 Lane-Poole, St., The Moors in Spain, pp. 23-27

(٣) البيان المغرب ج ٢ ص ٢٣

(٤) ابن عذارى ج ٢ ص ٢٢

« ألا يقوموا إلى داخل عليهم ولا إلى خارج منهم » (١) . عادوا إلى الأندلس ؛ وتسلموا ضياعهم . ومن سلالتهم سارة المعروفة بالقوطية . وهي جدة المزرخ أبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية (٢) .

كذلك أَرْضِي المسلمون النبيل القوطي « ثيوديمر Theudemer » حاكم مورسية Murcia ؛ وهو الذي دافع بشجاعة عن بلاده ؛ فأكبر فيه العرب شجاعته ؛ وأقره موسى على البقاء في حكومة إقليمية ؛ مع تبعيته للمسلمين . وظل على ذلك حتى مات . وحينئذ . ضم العرب « أرض تدمير » - كما كانوا يسمونه ؛ أو « مملكة تدمير » (٣) . ولتدمير هذا كتاب صلح ، كتبه له عبد العزيز بن موسى بن نصير ؛ خلال ولايته على الأندلس . حدد فيه حقوقه والتزاماته . ونسخة هذا الكتاب :

(١) ابن القوطية ص ٣٠ ، ٦٠ - ٦١

(٢) أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم الأندلسي الأشبلي الأصل ، القرطبي مولدا ، صاحب كتاب « تاريخ افتتاح الأندلس » ، نسب إلى جدته سارة القوطية ، وبها اشتهر ، وهذه الجدة هي ابنة وامبا Waiiba أو « وبه » كما تكتبها الراجع العربية ، ووامبا هو ابن غبطة ملك أسبانيا ، ووفدت هذه الابنة على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها أرطباس بن غبطة ، فتزوجها بالشام عيسى بن مزاحم ، من موالى عمر بن عبد العزيز ، وسار معها إلى الأندلس حيث طالت حياتها إلى أيام عبد الرحمن الداخل الأموي وغلب اسمها على ذريتها ، حتى عرفوا بها (انظر : تاريخ افتتاح الأندلس ص ٢٥ ، ٣١ - ٣٢ ؛ فتح الطيب ج ١ ص ١٢٥ ، شكيب أرسلان : غزوات العرب ص ٣٠ - ٣١ عن ابن خلكان) .

(٣) الروض الماطر ص ١٨١ - ١٨٣ ؛ فجر الأندلس ص ١١٢ - ١١٤ ، صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٠ ، أبو الفداء : تقويم البلدان ص ١٣٤ ، ابن عذاري ج ٢ ص ١٦ - ١٧ ؛ دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٩ ؛ ٢ : ٨١ - ٨٢ Lévi - Prov. T.I. PP.

« بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب من عبد العزيز بن موسى بن نصير
لنعمير بن عبدوش (١) .

« إنه نزل على الصلح ؛ وأن له عهد الله وذمته ، وذمة نبيه صلى الله
عليه وسلم ، ألا يقدم له ولا لاحد من أصحابه ، ولا يؤخر ، ولا ينزع
من ملكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون ، ولا يفرق بينهم وبين أولادهم
ولا نسائهم . ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحرق كنائسهم ، ولا ينزع
عن كنائسهم ما يعبد . وذلك ما أدى الذي اشترطنا عليه . وأنه صالح
على سبع مدائن : أريولة وبلتنية ولقنت ومولة وبلانة ولورفة وآله (٢) .
ولا يأوى لنا آبقاً ولا يأوى لنا عدواً ، ولا يخيف لنا آمناً ، ولا يكتم
خبر عدو عليه . وأن عليه وعلى أصحابه ديناراً كل سنة وأربعة أمداد
قمح (٣) وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط طلاء وأربعة أقساط خل ،
وقسطى عسل وقسطى زيت ، وعلى العيد نصف ذلك ، وكتب في رجب
سنة ٩٤ من الهجرة (٤) :

(١) يقال إن تدمير هذا هو ابن إرجوبادو Ergobados أحد كبار قواد غيطشة ،
وعبدوش أو غبدوش هو تحريف كلمة إرجوبادو ، ويجوز أن يقرأ غوبادوش أو جوبادوش
(فجر الأندلس ص ١١٢ ، Lévi - Prov. I, P P. 32 - 33)

(٢) Orihuela, Baltana, Alicante, Mula, Villena, Lorca & Ello. (٢)

(٣) المديساوى رطلا وثلاثا بالبغدادى — الرطل البغدادى يساوى ١٣٠ درهماً ويساوى
رطلين بالمصرى ، ويعتبر أقل من الربع المصرى ، وهو عبارة عن ملء كفى الإنسان المعتدل
بالحبوب إذا مدهما ، ومن هنا جاءت التسمية بالمد ، وقد جرب الفيروز أبادى ، صاحب القاموس
الحيط ، ذلك فوجده صحيحاً . (انظر القاموس المحيط ، وانظر ابن ممانى ص ٢٤١)

(٤) الروض المعمار ص ٦٢ -- ٦٣ ، المغرب فى حلى المغرب (تحقيق شوقي ضيف)
ص ٢٤٣ — ٢٤٤ — والمخطوطة . ج ٤ ورقة ١٠٣

د شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي وحبيب بن عبيدة الفهمري .
وعبد الله بن ميسرة الفهمي وأبو قائم الهذلي ، (١) .

وتدمير هذه هي التي أطلق عليها اسم د مصر ، لكثرة شبهها بها
في الخصب والزراعة (٢) . ويقال إن هذه التسمية حدثت زمن ولاية
أبي الخطار في عام ١٢٥ هـ / ٧٤٢ م . حين كثر أهل الشام عنده
ولم تحتلهم قرطبة ففرقهم في البلاد . وأنزل أهل دمشق إلبيده (٣) وسماها
دمشق لشبهها بها ، وأنزل أهل حمص أشبيلية وسماها حمص ، وأهل قنسرين
جيان (٤) ، وسماها قنسرين وأهل الأردن ريه (٥) ومالقة وسماها الأردن ،
وأهل فلسطين شذونه (٦) وهي شريش (٧) وسماها فلسطين ، وأهل مصر تدمير
وسماها مصر (٨) .

(١) هذه التكملة عن فجر الأندلس ص ١١٥ .

(٢) فتح الطيب ج ١ ص ١٥٥ ، ابن عبد الحكم ص ٢٨٠ ، Lane - Poole, op. Cit ,
P. : 25; De Marlés, PP. 69 - 73, Albert de Cicourt, Histoire Des Mares
Mudejares et Des Morisques ou Des Arabes D' Espagne T. I, PP. 1-7 .

(٣) Elvira

(٤) Jaén

(٥) هذا الاسم أطلقه المسلمون في أسبانيا على منطقة مالقة ، ومالقة هي عاصمة هذه
المنطقة ، ويحتمل أن كلمة ريه بحرفه عن العاصمة اللاتينية . Regio

(٦) Sidona

(٧) Jerez De la Frontera وهي من كور شذونه .

(٨) فتح الطيب ج ١ ص ١١٠ ، ابن عذاري ج ٢ ص ٤٨ - ٤٩ ، أعمال الأعلام
ص ٧ ، ابن القوطية ص ١٩٣

ولاه عبيد الله بن الحبحاب عامل مصر وأفريقية في شوال عام ١٣١ هـ ،
وهكذا ... (١).

* * *

على أن السيادة الإسلامية في هذه البقعة من أوروبا ، لم تكن منبسطة
على جميع أجزائها ، فقد بقيت الأقاليم المتطرفة التي لم يعن العرب بفتحها
بعيداً عن السيادة الإسلامية الفعلية ، وذلك لقحولاتها وبرودتها ووعورة
مسالكها ، فكانت ولاية أستوريا Asturias قد احتفظت باستقلالها تحت
حكم سادة من القوط الغربيين . وهؤلاء السادة يعزّز ملوك أسبانيا
المتأخرون بالانقسام إليهم ، ويفخرون بأنهم من سلالتهم ، وحتى في العصر
الحاضر كانت الأسر النبيلة في أسبانيا تفخر ببقاء عنصرها القوطي ، وإن لم
يكن هذا صحيحاً في جميع الأحوال .

حقيقة أن العرب المسلمين لم يقضوا على القوط الغربيين ، سادة أسبانيا
السابقين ، ولم يطردوهم كما طرد الإمبراطور جستنيان أشقاءهم القوط
الشرقيين من إيطاليا قبل ذلك بما يقرب من قرنين ، بل ظل القوط الغربيون
خاضعين لسلطان المسلمين ، كما خضعت بقية أسبانيا المسيحية ، واندمج
القوط مع السكان الأصليين حتى صار العنصران شعباً واحداً ، ويمكن
القول إنه منذ دخول العرب أسبانيا ، صار تاريخ القوط هو التاريخ
القومي لآسبانيا (٢).

(١) انظر ابن عذاري ج ٢ ص ٣٠ - ٥٢ ، فتح الطيب ج ١ ص ١١٠ ، أعمال الأعلام
ص ٦ - ٧ ، العبادي ص ٦٢

(٢) دولة القوط الغربيين للمؤلف ص ١٢٨ - ١٢٩

وكانت ولاية أشتوريا ، التي بقيت بمعزل من سلطان المسلمين ؛ النواة التي نمت حولها قوة المقاومة المسيحية الوطنية في أسبانيا ، حتى اتسعت رقعة المنطقة المسيحية تدريجيا ، فشملت جليقية Galicia (١) ثم اندمجت جليقية وأشتوريا فيما عرف باسم مملكة قشتالة وليون في فجر القرن العاشر الميلادي ؛ كما قامت مملكتا نافار وأرجون في منطقة الحدود عند سفح جبال البرانس .

(١) يطلق العرب على سكان جليقية اسم الجلائفة نسبة إلى الإقليم ، وهؤلاء الجلائفة ليسوا سوى السويث Suevi الجرمان الذين دخلوا أسبانيا في مطلع القرن الخامس الميلادي واقتسموا البلاد مع غيرهم من العناصر الجرمانية ، واندمجوا مع السكان الأصليين (انظر الروش المعطار ص ٦٦-٦٧) . Bury, op. Cit., Vol. I, P. 185, Courcelle, op. Cit., P. 8., Leclercq, op. Cit., PP. 213 - 216